شعر المقاومة عند محمود درويش
(دراسة وصفية تحليلية)

أ. سارة حســـــين سراحنة
جامعة القدس المفتوحة – الخليل - فلسطين

المستخلص :

تعد هذه الدراسة (شعر المقاومة عند محمود درويش). من الدراسات المحورية التي تتواصل معها قضية الشاعر، وشعبه وقضية انتفاضة الشعب ومقاومته. فهي قضية حية متفجرة وستضل كذلك حتى تتحرر الأرض وترجع فلسطين حرة أبية.حيث كانت هذه الدراسة على النحو التالي: مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول. وبدأت في التمهيد بتعريف شعر المقاومة ، وبيان أهمية هذا الشعر وبيان المراحل التاريخية التي مر بها هذا الشعر. ثم انتقلت إلى الفصل الأول وتحدثت فيه عن حياة محمود درويش من حيث (اسمه ونسبه، الدراسة والسياسة، ولادة شعره، أعماله، وفاته) ، وبعدها انتقلت إلى الفصل الثاني وتناولت فيه ملامح شعر المقاومة ، وموضوعات الشعر عند محمود درويش، والمراحل التي مر بها الشاعر في مسيرة الشعر العربي ، وأخيراً المطبوعات التي تقدر شعره. و تحدثت عن الخصائص الفنية لقصيدة البطل لدى محمود درويش، وتناولت اللغة الشعرية وبنية الصورة الشعرية عند درويش، وجعلتها أنموذجا يترجم لنا محور الأسس الفنية التي بنى عليها الشاعر قصيدته. وقد اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي ؛ لوصف وتحليل حياة الشاعر محمود درويش.

الكلمات المفتاحية: شعر المقاومة ، محمود درويش ، موضوعات شعر المقاومة ، المراحل التي مر بها شعر محمود درويش.

Mahmoud Darwish's Poetry of Resistence
(Descriptive and Analytical Study)

Sara Hussein Ahmad Sarahneh

Abstract:

This study (The Poetry of Resistance according to Mahmoud Darwish) is one of the pivotal studies with which the issue of the poet, his people and the issue of the people's uprising and resistance continue. It is a living and explosive cause and will remain so until the land is liberated and Palestine is free and proud again.This study was as follows:Introduction, preface and three chapters. I began to preface by defining the poetry of resistance, explaining the importance of this poetry, and explaining the historical stages that this poetry went through.Then I

moved to the first chapter and talked about the life of Mahmoud Darwish in terms of (his name and lineage, study and politics, the birth of his poetry, his works and his death), and then moved to the second chapter and dealt with the features of resistance poetry, and the topics of poetry when Mahmoud Darwish, and the stages that the poet went through in the march of Arabic poetry, and finally publications that appreciate his poetry.I talked about the artistic characteristics of Mahmoud Darwish's poem "The Hero", and dealt with the poetic language and the structure of Darwish's poetic image, and made it a model that translates for us the axis of the artistic foundations on which the poet built his poem.It relied on the descriptive and analytical approach to describe and analyze the life of the poet Mahmoud Darwish.

Key words: resistance poetry, Mahmoud Darwish, topics of resistance poetry, the stages that Mahmoud Darwish 's poetry went through.

المقدمة :

الحمد لله الذي أرسل رسله بالبينات والهدى، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط،واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد:

مشكلة البحث:

هل استطاع الشاعر محمود درويش تحدي النهج الثقافي لقوى الاستعمار من خلال شعره و كتابته؟

ما أثر المواجهة في تغذية الرفض العربي لواقع اسرائيل الاستعماري و تقوية شعور التلاحم بين سكان الأرض المحتلة في إطار تقديمي.

سبب اختيار البحث:

من الأسباب التي دفعتني إلى الكتابة عن الشاعر محمود درويش، أولاً: مكانة درويش الشعرية وأثره في الحياة الأدبية والثقافية العربية، وثانياً: الخصوصية الشعرية التي يتميز بها شاعرنا في استحضار القضية الفلسطينية وتوظيفها في شعره.

الدراسات السابقة :

من الكتب التي تناولت شعر المقاومة ، وحياة الشاعر محمود درويش كتاب الناقد المصري (رجاء النقاش) ،حيث درس محمود درويش ، ولم يقتصر على أشعاره، إذ تعرض لظروف الأرض المحتلة وشعبها العربي، كما درس الشاعر وحياته ومواقفه السياسية ،على الرغم من أن عنوان الكتاب يخص شاعراً إلا أن النقاش يدرس جذور الشعر الفلسطيني .

التمهيد:

شعر المقاومة :هو تلك الحالة التي يعبر فيها الشاعر بعمق وأصالة عن ذاته الواعية لهويتها الثقافية والمتطلعة إلى حريتها الحقيقية في مواجهة المعتدي،ولا يمكن التقليل من أهمية هذا الشعر ،حيث تكمن

أهميته في :

1. أنه لا تتجلى فيه نزعة عنصرية ضد اليهود كيهودي.
2. أنه لا تظهر فيه نزعة التفوق.
3. بروز صلة الإنسان بأرضه، بشكل لم تظهر فيه كما في الشعر العربي كله.
4. المواجهة وتغذية الرفض العربي لواقع إسرائيل الاستعماري وتقوية شعور التلاحم بين سكان الأرض المحتلة في إطار تقدمي.

ويمكن تقسيم شعر المقاومة المرتبط بقضية فلسطين إلى ثلاث مراحل تاريخية :

المرحلة الأولى : مرحلة المؤامرة(1917ـــ 1948) بدأت بما عرف بوعد بلفور عام(1917) وذلك منذ ظهرت نوايا اليهود في إقامة وطن لهم في فلسطين واتضحت المؤامرة ضد العرب والمسلمين والفلسطينيين في الثاني من نوفمبر عام 1917 عندما وعد بلفور اليهود بالعمل على إقامة وطن قومي لهم بفلسطين وهو ما اعترفت به فرنسا، إيطاليا، أمريكيا. ومن شعراء هذه المرحلة : إبراهيم طوقان، عبد الرحيم محمود، علي الجارم، وغيرهم.

المرحلة الثانية: مرحلة النكبة:(1947ـــ 1967) هي المرحلة التي تبدأ مع نكبة العرب وهزيمتهم على يد اليهود عام 1948 وإعلان قيام دولة إسرائيل في الخامس من مايو ، وتمتد حتى عام 1967 ، ونشبت حرب بين الدول العربية وإسرائيل على أثر إعلان قيام دولة إسرائيل في الخامس عشر من مايو 1948 ، وانتهت الحرب بهزيمة الجيوش العربية واحتلال إسرائيل للجزء الأكبر من فلسطين. وتعتبر هذه المرحلة مرحلة البحث عن الهوية والتشبث بالذاكرة والدعوة إلى المقاومة ووضع الحل في خانة النضال بعيدا عن الحلول الفردية ، ومن شعراء المقاومة الذين بدا ظهورهم في هذه المرحلة الشاعر الفلسطيني (محمود درويش) الذي أصدر أول ديوان له : «عصافير بلا أجنحة» عام 1960 وهو ابن ثمانية

عشر عاما ، وتتمحور أشعاره حول فلسطين التي يراها الماضي والحاضر والمستقبل، ومما تميز به محمود درويش في شعره أنه لم يقتصر في موضوعاته عن وطنه فلسطين.

المرحلة الثالثة: مرحلة النكسة:(1967ـــ 1987) هي المرحلة التي بدأت بانطلاق فعل المقاومة وبروز سماتها وتواصل فيها الإبداع الأدبي واستمر حتى بداية الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام 1987ومن أشهر شعراء هذه المرحلة: محمود درويش، سميح القاسم، توفيق زياد محمد علي طه. ومن أبرز شعراء المقاومة المرتبط بفلسطين هو الشاعر محمود درويش ، وكانت ميوله اشتراكيه وأفكاره ماركسية على المستوى السياسي وهو ما عرضه للكثير من النقد شأنه في ذلك شأن الكثيرين ممن عاصروه أو سبقوه بفترة بسيطة متأثرين من الثورة البلشفية التي حدثت في روسيا عام 1917م . ومن أشهر ما كتب محمود درويش منظومة بعنوان(أنا عربي).

لكن أخذ الشاعر الفلسطيني على عاتقه التغني بالوطن، بسبب المعاناة التي مر بها الفلسطينيين، ورغم ذلك تغنى أبناء فلسطين بالمقاومة وظهرت هذه الظاهرة في شعرهم . وعلى رأس هؤلاء الشاعر محمود درويش، وهذا ما سنتحدث عنه في هذا البحث إن شاء الله تعالى.

سيرة محمود درويش:

اسمه ونسبه :

ولد محمود سليم حسين درويش عام 1941 في قرية « البروة »[*] من قضاء مدينة عكا في الجليل الغربي بفلسطين لأسرة عاشت من الزراعة، فأبوه فلاح بسيط وأمه سيدة لا تقرأ ولا تكتب، من قرية الدامون وكان والدها مختار القرية(عمدتها) . ومحمود هو الابن الثاني من ثمانية أبناء خمسة أولاد وثلاث بنات .

بعد احتلال الإسرائيليين البروة وهدمها وطرد سكانها عام 1948م نزحت الأسرة إلى لبنان ... «في إحدى ليالي الصيف ... أيقظتني أمي من نومي فجأة، فوجدت نفسي مع مئات من سكان القرية أعدو في الغابة. كان الرصاص يتطاير فوق رؤوسنا، ولم أفهم ما يجري بعد ليلة من التشرد والهرب وصلت مع أحد أقاربي الضائعين في كل الجهات إلى قرية غريبة ذات أطفال آخرين. تساءلت بسذاجة: أين أنا ؟،وسمعت للمرة الأولى: لبنان[1].

ثم عادت العائلة متسللة عام 1949م بعد توقيع اتفاقيات الهدنة لتجد القرية مهدمة وقد أقيم على أراضيها موشاف (قرية زراعية إسرائيلية) أحيهود. وكيبوتس يسعور، فعاش مع عائلته في قرية الجديدة[2] .

الدراسة والسياسة :

أكمل تعليمه في ظروف قاسية، حتى أحرز شهادة الثانوية العامة . عاش معلماً في قرية الجديدة التي انتقلت إليها أسرته واستقرت فيها. وفي عام 1960م انتقل إلى مدينة حيفا وبدأ من هناك مرحلة جديدة من حياته، في مواجهة العنصرية والغطرسة الصهيونية والاعتداء الصلف على أبسط حقوق الإنسان. مارس نشاطه السياسي« في حركة الأرض » ثم من خلال انضمامه إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وعاش على الكتابة للصحف العربية التي تصدر هناك، ثم عمل في جريدة الاتحاد ومجلة الجديد من صحف الحزب الشيوعي الإسرائيلي[3].

تعرض للاعتقال والسجن مرات كثيرة، كانت الأولى سنة 1961م في مدينة حيفا، وكانت المرة الثانية سنة1965م، حيث سجن في سجن الرملة لأنة سافر من حيفا إلى القدس (للاشتراك في أمسية شعرية عقدها الطلبة العرب في الجامعة العبرية بالقدس) من دون تصريح من السلطات الإسرائيلية .وسجن للمرة الثالثة عام 1967م بتهمة تعاطيه(النشاط المعادي لإسرائيل) عشية العدوان الإسرائيلي على البلدان العربية المتاخمة في الرابع من حزيران/يونيو1967م ساقته إلى سجن الدامون، وكانت المرة الخامسة في سنة1969م حيث اعتقل في سجن الجلمة. [4]

سافر في أوائل عام 1970م إلى موسكو للدراسة الجامعية، بعد أن حصل على بعثة دراسية،نتيجة جهد كبير من خلال الحزب الشيوعي الإسرائيلي،ومكث هناك عاماً وبعض عام، ثم غادر موسكو إلى القاهرة (شباط/فبراير1971م)وأصدر بيانا للرأي العام قال فيه:(أن الخطوة الخطيرة التي اتخذتها نابعة من اعتبارات خدمة القضية من مواقع تبدو لي أكثر انطلاقا وحرية،وقد تمنحني مزيداً من القدرة على التعبير والعمل أكثر مما كنت قادراً على عمله في بلادي..إنني قادم من منطقة الحصار والأسر إلى منطقة العمل...)..(أن شعرة معاوية بيني وبين القانون الإسرائيلي قد انقطعت، وأن طاقتي على الاحتيال والتجاوز قد نفدت، خاصة أنني لم أعد منتمياً إلى شعب يطلب الرحمة ويتسول الصدقات، ولكنني أنتمي إلى شعب مقاتل)[5] لكنه أعلن

عام1994م أنه أخطأ في الخروج من أرضه،وعبر عن ندمه على المستوى الوطني وقال: (لكنني لا أعتقد أنني أخطأت إبداعياً،لو أتيح لي أن أبقى لما تطورت ولما أسهمت في تطوير شعري ومحاولة القصيدة العربية الح ديثة).

انضم إلى أسرة مجلة (شؤون فلسطينية) التي تصدر عن مركز الأبحاث والدراسات الفلسطينية وأصبح رئيساً للتحرير،لكنه ترك المجلة بعد حين واختير عام1987م عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وأسندت إلية رئاسة المجلس الأعلى للثقافة والإعلام والتراث،ثم استقال في 21/8/1987م أعقاب توقيع اتفاقية(أوسلو) بين المنظمة والكيان الإسرائيلي [6]

حصل على جوائز عالمية منها:اللوتس،ابن سينا، لينين، البحر الأبيض المتوسط،درع الثورة الفلسطينية، المكتب الأسباني ، وسام الفارس الفرنسي، وسام الضابط ،جائزة خاصة من لجنة كفافيس الدولية عام 1993م[7]

ولادة شعره:

بدأ حياته مع الشعر في سن مبكرة (كنت أكثر من مطالعة الأدب العربي، وقلدت الشعر الجاهلي في محاولاتي الشعرية الأولى) ..(كانت مواضيع محاولاتي الشعرية الأولى هي مشاعر الطفولة، وكنت أحاول الكتابة أحيانا عن مواضيع ذات وزن كانت أكبر من طاقتي في تلك السن) .لا أذكر متى بدأت بالضبط محاولة كتابة الشعر ،ولا أذكر الحافز المباشر لكتابة القصيدة الأولى،وإن كنت أذكر أني حاولت في سن مبكرة كتابة قصيدة طويلة عن عودتي إلى الوطن ،حذوت فيها حذو المعلقات فأثارت سخرية الكبار ودهشة الصغار. أذكر أن بعض الصحف بدأ ينشر محاولاتي عندما كنت في المدرسة الابتدائية ...وخلال دراستي الثانوية صارت كتابة الشعر تحتل الجزء الأكبر من اهتمامي، وكان اندفاعي وراء الانسياق الموسيقي ينسيني أو يضيع علي الفكرة).

أخذ محمود درويش نفسه بالمشقة جاهداً لتطوير تجربته الشعرية دون توقف وباستمرار حتى أصبح اليوم يمثل ظاهرة مميزة، متفردة في حركة الحداثة الشعرية العربية . بل إن سيرته الشعرية رافقت سيرته الذاتية في تناغم حميم وصدق بالغ ،فكانت قصائده الأولى (تعبيراً عن محاولات غير متبلورة) تتسم بالخطابة والمباشرة والصخب[8]

كان التأثر بالشعر العربي القديم وخصائصه الفنية واضحاً فيها , ثم أصبح شعره رومانسياً متأثراً بشعراء المهجر وغيرهم من شعراء الرومانسية في مصر ولبنان وسورية وقد أطلق محمود على هذه النقلة تسمية (الثوري الحالم) التي كانت مقدمة إلى مرحلة جديدة هي انضج مراحله الفنية قبل خروجه من إسرائيل ،ارتفع فيها بشعره إلى مستويات رفيعة حيث نجد تغيراً في الأسلوب وطريقة التعبير الفني ، وأصبحت قصائده تتماوج بالرموز والإيحاءات الغنية وظهر الفضاء الميثولوجي في شعره من استخدامه الأساطير والقصص الشعرية ، متأثراً في ذلك بالشعر الجديد وأعلامه من الشعراء العرب المعاصرين ،مع تميزه عنهم بالوضوح الفني بحكم ارتباطه الحميم بالجماهير العربية في الأرض المحتلة ،وكذلك التحامه الكامل بموضوعه الأساس في شعره ألا وهو وطنه وجرحه فلسطين[9] . وبعد خروجه من الأرض المحتلة ازدادت ثروته الشعرية ومكتسباته الأدبية واتسعت تجربته النضالية، فظهر على العالم العربي بآفاق ورؤى جديدة ، واقترب كثيراً من صياغة مفرداته واكتشاف لغته الشعرية الخصوصية ، ثم تطور بتجربته المذهلة إلى الغنائية

الملحمية التي قدم فيها قصائد طوالاً ذات بناء شعري مسرحي جسدت نضجه وامتلاء مخزونه من التجارب والإطلاعات والمثاقفات [10] وفي منتصف الثمانينيات ظهر اهتمام الشاعر بما يسمى ب(قصيدة النثر) على(اعتبار أن قصيدة النثر واقع يجب التعامل معها بابتهاج وافتتان) إيمانا منه بضرورة (التعايش بين كل أشكال التعبير الأدبي والشعري)[11] وهو يرى أن أحسن مرحله في شعره هي فترة السنوات الإثنتي عشرة الأخيرة (1983ـــ 1995م) وقال: (لو شئت أن أجمع مختاراتي من شعري أو أن أكون ناقد شعري لاعتبرت إنني اقتربت من الشعر أكثر بعد خروجي منبيروت) . ويرى الدكتور إدوارد سعيد (أن محمود درويش لا يقتصر على تأمين أداة للوصول إلى رؤية غير عادية أو إلى كون قضى من نظام متعارف عليه، بل هو تلاحم عسير للشعر وللذاكرة ، ولضغط كل منهما الآخر). ترجمت مختارات من شعره إلى الإنكليزية والفرنسية والروسية والسويدية والألمانية والأسبانية والهولندية والبلغارية والمجرية والبولندية واليابانية وغيرها.[12]

أعماله :

ولمحمود درويش أعمال كثيرة منها:

1. عصافير بلا أجنحة.
2. أوراق الزيتون.
3. عاشق من فلسطين.
4. آخر الليل النهار.
5. يوميات جرح فلسطيني.
6. حبيبتي تنهض من نومها.
7. أحمد الزعتر.
8. العصافير تموت في الجليل.
9. ديوان محمود درويش.
10. الأعمال الشعرية الكاملة [13]

وفاتـــــه :

توفي في الولايات المتحدة يوم السبت التاسع من أغسطس عام 2008م بعد إجراء عملية قلب مفتوح التي دخل بعدها في غيبوبة أدت إلى وفاته بعد أن قرر الأطباء نزع أجهزة الإنعاش .

أعلن الرئيس محمود عباس الحداد ثلاث أيام في الأراضي الفلسطينية حداداً على وفاة الشاعر محمود درويش واصفاً إياه بـ (عاشق فلسطين) ورائد المشروع الثقافي الحديث والقائد الوطني اللامع والمعطاء.

- ملامح شعر المقاومة:

موضوعات الشعر عند محمود درويش:

والمراحل التي مر بها درويش في مسيرة الشعر العربي:

تمهيـــــد:

بدأ محمود درويش شاعراً مقاوماً. وظل مخلصاً لما بدأه، وان كانت التجربة الفلسطينية، التي عرفت الشوك ولم تعرف من العسل إلا اسمه، قد علمته أن المقاومة بصيغة المفرد لا وجود لها، وأن من

يعيش التجربة يدرك أن لكل سياق شكل من المقاومة خاص به : المقاومة بالسلاح، مقاومة الكتابة الرديئة، مقاومة الخيبة ورثاء الحالمين الذين سقطوا في الطريق، مقاومة اليأس، مقاومة الحصار، مقاومة الحقد الأعمى الذي هو العدو الحقيقي للإبداع الشعري[14]

عرف الشاعر المتعدد في أطواره الشعرية، دلالة المقاومة المتعددة وأدرك وعيه المهجوس بالتعدد، أن هوية الإنسان المقاوم محصلة لأشكال التحدي والرد عليه. والمقاومة وعي الضرورة، وهي البحث عن غد يحقق الهوية، وهي السعي إلى هوية متطورة تشتق من التجربة وهي الفعل الحر الذي ينشد غداً قوامه ذات تكون كما تريد أن تكون. وما الأمل، الذي يحتاجه مقهورون صودر وجودهم، إلا ذلك الطريق الشائك الطويل الذي يتلامح في نهايته شيء يدعى: الحرية[15] .

في النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي، أطلق غسان كنفاني على أدب فلسطين المحتلة صفة (أدب المقاومة)، الذي اشتقت منه صفة (شعراء المقاومة)، وصولاً إلى (شاعر المقاومة الفلسطينية : محمود درويش.) وقد ارتضى هذا الشاعر الشاب بلقبه، الذي عبر عن قصيدة تبشيرية تعد بتحرير الحاضر من قيوده، وعن شاعر غاضب اشتهى مستقبلاً لا شذوذ فيه. كتب الشاعر عما كتب عنه غيره من شعراء المقاومة، لكنه لم يكن منهم بسبب نجابة مبكرة لا تخطئها العين النافذة. [16] وقد أعلن درويش عن موضوعاته التي تقترحها فلسطين المحتلة، وعن القارئ الذي تتجه إليه قصيدة مقاتلة. بحيث تحدثت موضوعاته عن: ولاء، أمل، مرثية، وعن رسالة من المنفى، الصمود ،البكاء، الحزن والغضب ، و بطاقة هوية، وأخيراً عن الصاحب (الذي مضى وعاد في كفن)[17].....

ملامــح شعر المقاومة:

أولا: التمسك الشديد بالأرض:

لقد صور الشعراء الإنسان الفلسطيني متعلقاً بالأرض متمسكاً بذراتها ومشدوداً إليها لا يستطيع الانفصام عنها فهي عشيقته وهو حبيبها الأوحد، وإضافة إلى ذلك فإن الشاعر الفلسطيني في الأرض المحتلة قد جعل الأرض محور أساسي في قصيدته لإدراكه أنها محور الصراع في الواقع، لذلك رفض أساليب النفي والتهجير والقمع التي اتبعها العدو وقاومها بوسائل شتى ، وغرس في نفوس إخوانه الإصرار على البقاء في الوطن على الرغم مما يتعرضون لهم من قمع سلطات العدو، ويؤكد الشاعر محمود درويش أن هناك علاقة جدلية بين الأرض التي تمنح الإنسان الحياة والفلاح الذي ارتبطت روحه بأرضه والإصرار الذي يبلغ الإنسان غايته[18]

الأرض والفلاح والإصرار
قل لي: كيف تقهر.....
هذه الأقانيم الثلاثة.....
كيف تقهر[19] ؟

وهناك الالتحام الكلي بين الإنسان والأرض، وإن اكتشاف الإنسان لذاته وهو يقودنا إلى مساواة الإنسان بالأرض ، ويقول درويش:

لترتفع الآن اذرعة اللاجئين
رباحاً، رباحاً

لتنتشر الآن أسماؤهم
جراحاً، جراحاً
لتنفجر الآن أجسادهم
صباحاً، صباحاً
لتكتشف الأرض عنوانها
ونكتشف الأرض فينا[20]

ثانيا: الحفاظ على الهوية الوطنية والشخصية القومية في وجه محاولات العدو الصهيوني القضاء عليهما:

فقد دفع تشبث الإنسان الفلسطيني بالأرض والتغني بها إلى إبراز هوية صاحبها وانتمائه القومي وإصرار شعراء المقاومة على إبراز الهوية الفلسطينية هو نفي مباشر للاعتراف بالكيان الصهيوني، فالأرض الفلسطينية مثل صاحبها، يقول محمود درويش في ذلك[21]

فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية الأحلام والهم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الكلمات والصمت
فلسطينية الصوت
فلسطينية الميلاد والموت(22)

ونرى أن شعر المقاومة كان ملتزماً برسالة واضحة، وكانت لغته في الأغلب سهلة وألفاظه قريبة من فهم الناس، وصوره مستمدة من الواقع، وقد عبر درويش عن ذلك بقوله:

قصائدنا بلا لون
بلا طعم، بلا صوت
إذا لم تحمل المصباح من بيت إلى بيت
وإن لم يفهم البسطا معانيها
فأولى أن نذريها
ونخلد نحن للصمت(23)

ثالثا: التغني العميق بالحرية:

لقد حرم الإنسان الفلسطيني في الأرض المحتلة من حرية التعبير وحرية التنقل كيفما شاء داخل وطنه وخارجه، حتى إنه حرم من دخول بعض الأحياء التي أصبح يقطنها يهود. وعندما طالب بحقوقه المدنية والسياسية والقومية تعرض للاضطهاد والتعذيب والنفي والتشريد والملاحقة والإقامة الجبرية. وعندما أخذ شعراء المقاومة يؤدون واجبهم الوطني تجاه شعبهم ووطنهم سلبت حريتهم منهم وسجنوا مرات عدة .

ويبتعد محمود درويش في قصيدته (في السجن) عن النزعة الحماسية الخطابية، ويعمد إلى التعبير عن حركة النفس الداخلية وهي تواجه السجن وعن التحولات الروحية التي تجعل الشاعر يرى الأشياء بصورة تختلف عن غيره[24]:

تغير عنوان بيتي، وموعد أكلي، ومقدار تبغي تغير
ولون ثيابي، ووجهي، وشكلي
وحتى القمر(25)

ويعمد محمود درويش في قصائده (السجن)، (قال المغني)، (أغاني الأسير)، (برقية من السجن) إلى النبرة الغنائية البسيطة المتفائلة في تصويره لمعاناته ومعاناة الإنسان الفلسطيني عامة داخل سجون الاحتلال، وتجده في تلك القصائد يقابل بين صورتين صورة السجين الفلسطيني الذي رمز له بالصليب وأكاليل الشوك والشمس والمغني... وصورة السجان (العدو الصهيوني) ورمز له بالسلاسل والسوط والجدران... وعلى الرغم من شدة المعاناة في السجن إلا أن درويش يصور السجين صامداً ثابتاً على رأيه لا تؤثر فيه سجون الاحتلال، ولا تنال من عزيمته وسائل التعذيب المختلفة [26]:

المغني على صليب الألم
جرحه ساطع كنجم
قال للناس حوله
كل شيء... سوى الندم
هكذا مت واقفاً
واقفاً مت كالشجر
هكذا يصبح الصليب
منبرا أو عصا نغم
ومساميره... وتد(27)

موضوعات شعر المقاومة عند درويش:

الأرض: لم يكن مفهوم الأرض عند درويش تراباً ومكاناً ومناخاً وأشجاراً ولم يكن مفهوماً تاريخياً وجغرافياً فقط، بل كانت مفهوماً رمزياً حركياً، ينطوي على كل الدلالات. ويعد الشاعر من أكثر الشعراء عناية بتوظيف الأرض بشعره والتواصل معها، وربما ذلك بسبب الارتباط اليومي بالصراع والنضال، مما جعل الأرض الهدف الذي يسعى إليه شعبنا الصامد.

فالمحتل يفترض أن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، والفلسطينيون يؤكدون أن فلسطين كانت وما زالت أرضا لشعب عاش عليها ومازال وسيظل، والأرض تدخل عمق المعادلة في ذهنية شعبنا وذهنية عدونا. ويرغب محمود درويش في قصيدته (قصيدة الأرض) في أحداث يوم الأرض(31/أذار/1976) في التوحد مع الأرض وصولا إلى توحد أعمق مع القوى الباعثة للخصب والحاملة لبذور اللقاح[28] وفي شهر أذار قبل ثلاثين عاما وخمس حروب

ولدت على كومة من حشيش
أبي كان في قبضة الإنجليز
وأمي تربي جديلتها
وامتدادي على الشعب
كنت أحب جراح الحبيب
واجمعها في جيوبي
فتذبل عند الظهيرة
مرَ الرصاص على قمري الليلكي فلم ينكس
غير أن الزمان يمر على قمري الليلكي فيسقط في القلب سهوا(29)

التراب يقول الشاعر:

إن المكان ليس مسافة فحسب
إنها حالة نفسية
ولا الشجر شجر
إنه أضلاع الطفولة(30)

في البدء كان محمود درويش شاعر الوطن، وكان شاعر التراب، فالتراب لدى درويش هو الشعر، وفلسطين داخل كل سطر من شعره، وداخل كل كلمة، وملاحظة أن كلماته تولد من كل شيء في فلسطين من التراب ورائحة البرتقال، والياسمين والدم.

وهي ليست مجرد أرض تحمل ذاكرة، إنها أرض المستقبل العربي وعلى دمائها تكتب ملامح المستقبل[31]

البحر: قد اتخذ أبعاداً مهمة خارج الإطار الجمالي في الشعر العربي، لقد تناول محمود درويش البحر بشكل سطحي وبسيط وكان للتلوين:

أحبك
والأفق يأخذ شكل السؤال
أحبك
والبحر أزرق(32)

البحر كل شيء أزرق، فقد عاد درويش إليه من خلال لونه ولكن ليس للتلوين كما كان في البداية، ولكن ليدخل اللون الأزرق كرمز من رموز العذاب الجسدي والروحي التي يعانيها الشعب العربي الفلسطيني[33] وظهر في قصيدته أحمد الزعتر:

لم تأتي أغنيتي لترسم أحمد المحروق بالأزرق
هو أحمد الكوني في هذا الصفيح الضيق
المتمزق الحالم

يا أيها الولد الموزع بين نافذتين
لا تتبادلان رسائلي
قاوم
إن التشابه للرمال، وأنت للأزرق[34]

لقد تناول الباحثون قصائد درويش لأهميتها في مسيرة الشعر العربي القومي بالدراسة المعمقة ووجدوا أن شعره مر بعدة مراحل:

المرحلة الأولى: تميزت بتأثره بغيره من الشعراء وهذا ما نجده في ديوانه « عصافير بلا أجنحة» الذي صدر عام 1961.

والذي قال النقاد عنه إنه متأثر أشد التأثر بشعر نزار قباني، وهي مسألة يؤكدها درويش في إحدى المقابلات التي أجريت معه، وفيها تحدث عن بداياته بالقول:(لقد خرجت من معطف نزار قباني) [35]

المرحلة الثانية: وتميز فيها الرقة والثقة بالنفس والفخر بعروبته كما في قصيدته:

سجلْ أنا عربي
ورقم بطاقتي خمسون ألف
وأطفالي ثمانية
وتاسعهم سيأتي بعد صيفٍ
فهل تغضبْ(36).. ؟ ! .

وفي حديثه عن هذه المرحلة التي مر بها وحياته الفنية فإنه يطلق عليها تسميه(الثوري الحالم)، وبالفعل فإن أغلب قصائده تأخذ منحى الهدوء وليس الكفاح المسلح أو الخط الصراعي ضد المحتل الصهيوني. لعل ذلك عائد إلى أن المقاومة الفلسطينية لم تعلم في تلك الفترة ولم تشق طريقها إلى النور فكانت ثورة الشاعر على الأوضاع التي يعانيها العربي في الأرض المحتلة سواء كانت الأوضاع معنوية أو مادية تأخذ تعبيره بشكل عام أشبه(بالحلم الغامض المبهم)[37]

المرحلة الثالثة: وفيها اكتمل نضج شعره وبلغ مراحل متقدمة من اكتمال العبارة وجماليتها وصدقها ورهافتها كما في دواوينه: عاشق من فلسطين ـ آخر الليل - العصافير تموت في الجليل.

وتعتبر هذه المرحلة الأخيرة من شعر درويش داخل الأرض المحتلة، وظهر إلى حد بعيد(الفضاء الميثولوجي)في شعر درويش من حيث الاعتماد على الأساطير القديمة ولا سيما أساطير الخصب والولادة في الشرق القديم، كأساطير تموز وأدونيس في بلاد ما بين النهرين وسوريا وأزوريس في مصر.

المرحلة الرابعة: وصل شعره إلى مرحلة متميزة وثرية كما نلحظ ذلك في ديوانيه:

أحبك أو لا أحبك ـ انتحار العاشق.

ومن أجمل قصائده(مزامير) و(سرحان يشرب القهوة في الكفتيريا) وفي هذه المرحلة نرى الشاعر اقترب من صياغة مفرداته الخاصة واكتشاف لغة الشعر الحديث، حيث أن للغة ينابيع يجب تفجيرها إلى حد بعيد عن تقعرات النحو ومقاييس اللغة التقليدية، فالثورة في الشعر تبدأ أولاً من اللغة التي يستمد منها النص حيويته.

المرحلة الخامسة : هي المرحلة الغنائية الملحمية كما في ديوانيه : أعراس ـ حصار لمدائح البحر .

وفيها وصل الشاعر نقطة انعطافه المهمة لا على المستوى الفلسطيني بل على المستوى العربي ومنه إلى المستوى العالمي ولا سيما ديوانه أعراس.

المرحلة السادسة: أشعاره تنزف حزنا وأبعادا فلسفية حائرة وتميل إلى قصائد النثر كما نجد ذلك في ديوانه: لماذا تركت الحصان وحيدا.

حيث تطالعنا حوارية رائعة غير مسبوقة في شعرنا العربي وتحمل معاني الانتماء لأرض فلسطين وحتمية العودة للوطن والذكريات التي لا تزول أبداً وهي تجري بين ابن وأبيه [38]

... لماذا تركت الحصان وحيداً

يا أبي..

.. لكي يؤنس البيت يا ولدي

فالبيوت تموت إذا غاب سكانها.. متى يا أبي نعود.

غدا.. ربما بعد يومين يا ولدي[39]

لقد صدرت عدة مطبوعات تثمن شعره ومن أشهرها :

1. كتاب محمود درويش .. حالة شعرية: للناقد صلاح مفضل تناول فيه العديد من القضايا الحياتية والشعورية التي شكلت تجربته في قصائده وأن تنقلاته العديدة ما بين رام الله وعمان كانت تسبب له الحصار النفسي والقلق وهو يرى عبثية المفاوضات وعدم جدواها وابتلاع الوطن الفلسطيني. ويتحدث الناقد عن المرحلة الرومانسية والتأثر بشعر نزار قباني ثم عبوره إلى عتبات الحداثة والتجريد وصولا إلى القصيدة الدرامية .
2. كتاب موت التاريخ، منحى العدمية في أعمال محمود درويش الأخيرة: للناقد أحمد دلباني الذي يركز في دراسته على مقولة محمود درويش: «لا تكتب التاريخ شعراً.. فالسلاح هو المؤرخ».

التي أسست لانعطافة تراجيدية في تجربة الشاعر الأخيرة والتي اتسمت بالعدمية المطلقة والسأم الوجودي وكانت قصائده الأخيرة في مواجهة مباشرة مع الموت [40] حيث يقول:

انكسر النشيد

وشجّ سهمٌ طائش وجه اليقين(41)

ويستنتج الناقد: أن محمود درويش مقاوم عنيد بروحه وضميره، أسس بقصائده نهجاً مقاوماً للمحتل الصهيوني الذي مهما دمر وقتل وبنى المستوطنات فإن وجوده عابر وليس أمامه سوى الانصراف من حيث أتى ونقرأ ذلك في مقاطع من أروع قصيدة عربية كتبت عن فلسطين [42]:

أيها المارون بين الكلمات العابرة

آن أن تنصرفوا

وتقيموا أينما شئتم ولكن لا تقيموا بيننا

ولتموتوا أينما شئتم ولكن لا تموتوا بيننا

فاخرجوا من أرضنا (43).

الخصائص الفنية لقصيدة البطل عند درويش:

اللغة الشعرية وبنية الصورة عند درويش:

الخصائص الفنية «لقصيدة البطل»عند محمود درويش:

1. التداخل بين الشخصيات والمواقف، ففي الوقت الذي يعلي من شأن رجال المقاومة ويتغنى بصمودهم، فإنه يقدم صورة قبيحة للعرب الذين يحاولون أن يجهضوا الثورة، ويقدم صورة مخزية للذين اتخذوا موقفاً لا مبالياً مما يحدث للفلسطينيين، وهذه الصورة تداخلت مع صورة البطل المقاوم.
2. توظيف الرمز في نسج الصورة الشعرية.
3. استعمل الزمن استعمالاً جلياً ومكثف.
4. اللجوء إلى التكرار.

أما إذا انتقلنا إلى لغة الشاعر فإننا نجد لغة شعرية مجازية، سليمة و فصيحة، حيث ارتقى بألفاظه إلى الشعر الوطني، وتخلو من التعقيد واللفظ الغريب، وجاءت مليئة بالصور الشعرية المفردة والمركبة التي اختصرت الكثير من المواقف والدلالات[44]ويتمثل ذلك من خلال قصيدة(أحمد الزعتر):

ليدين من حجر وزعتر
هذا النشيد...لأحمد المنسي بين فراشتين
مضت الغيوم وشردتني
ورمت معاطفها الجبال وخبأتني
نازلا من نحلة الجرح القديم إلى تفاصيل
البلاد وكانت السنة انفصال البحر عن مدن
الرماد وكنت وحدي
ثم وحدي
آه يا وحدي ؟ وأحمد
كان اغتراب البحر بين رصاصتين
مخيم ينمو، وينجب زعترا ومقاتلين
وساعدا يشتد في النسيان [45]

النص أو القصيدة التي هي بصدد التحليل، نص لشاعر من شعراء المقاومة الفلسطينية، حيث نوع الشاعر في الأساليب الشعرية وبرع في الحديث عن عدة قضايا منها: قضية الوطن، الحرية، الأرض، والمحنة التي حلت بأبناء الشعب الفلسطيني.

التأمل في الجو العام والمناسبة:

يتحدث الشاعر عن حدث مهم يطلق عليه أحياناً ملحمة(تل الزعتر) هذا الحدث يحاول أن يجعل منه أسطورة تخلد البطولة، يعبر عنها بنبرة مأساوية. وتتمحور جميع أبيات القصيدة حول البطل (أحمد)، والاسم (أحمد) مركب من اسم الرسول صلى الله عليه وسلم، بما فيه من دلالات دينية روحية، وهو يؤكد أن

الفلسطيني المطارد في المنفى هو أشبه ما يكون بأحمد الأمين الذي طاردته قريش وهجرته، و(الزعتر) اسم المخيم الذي حوصر وشهد بطولات عديدة، وهو بطل هذه القصيدة، وتبدأ القصيدة بهذا النشيد:[46]

ليدين من حجر وزعتر

هذا النشيد...لأحمد المنسي بين فراشتين

مضت الغيوم وشردتني

ورمت معاطفها الجبال وخبأتني

يجعل الشاعر الغيوم رمزاً للتشرد، والحجر رمز للمقاومة، و الزعتر للصمود.

فقد مضى المقاتلون إلى جهات متعددة بعد أن هزم المدافعون عن المخيم، فمنهم من مضى إلى الجبال، ومنهم من اتجه إلى البحر.

(ولتسمية قصيدته بـ(النشيد) تأصيل منذ ملحمة جلجامش المصاغة شعراً، إلى أناشيد الأديان السماوية، إلى ديوان العرب إلى محمود درويش)[47]

نازلاً من نحلة الجرح القديم إلى تفاصيل

البلاد وكانت السنة انفصال البحر عن مدن

الرماد وكنت وحدي

ثم وحدي

بدأ ب(نازلاً) والنزول يوحي بالانهيار، انهيار المكان والزمان بعد حصار بيروت، فيجد أحمد نفسه غريباً، ويعبر الشاعر عن هذه الغربة بألم، يقول:

آه يا وحدي؟ أحمد

وأحمد فاقد الهوية:

يريد الهوية فيصاب بالبركان

فإنه يأخذ بالسؤال عن هذه الهوية المفقودة:

عشرين عاماً كان يسأل

عشرين عاماً كان يرحل

عشرين عاماً لم تلده أمه إلا دقائق في

إناء الموز

وانسحبت.

لم يعط أحمد الفرصة كي يتم استعداده لمواجهة المعركة، لم يمكث سوى دقائق في إناء الموز، والموز يحتاج إلى شروط حتى ينضج، لكن أحمد لم تتح له هذه الفرصة، ومع هذا فقد بقي يسأل عن هويته، فيصل أخيراً إلى قرار سريع يعلنه الشاعر على لسان أحمد:

أنا أحمد العرب ؟ قال

أنا الرصاص البرتقال الذكريات

ويعلن هنا عن نفسه بأنه منقذ عربي، ويرمز لفلسطين برموز(الرصاص، البرتقال، الذكريات) حيث رمز الرصاص إلى ماضٍ مليء بالصراعات، والبرتقال أرض فلسطين أما الذكريات فهي الحاضر الذي يعيشه أحمد، ولم يبق له سوى الحلم ومع ذلك فإن أحمد لم ييأس من هذا الواقع، فأخذ يعد نفسه للمواجهة، وراح يخطط للمستقبل، وهو لا يملك سوى الحلم، فحلمه نجمة تهديه في هذا الطريق المظلم [48]

ومن المحيط إلى الخليج، من الخليج إلى المحيط

كانوا يعدون الرماح

إنهم يعدون الرماح لمنعه من الصعود ليرى حيفا، وهو يصر على رؤيتها ولو عن بعد، لأنه يمنع من رؤيتها مباشرة، مما دفع الشاعر إلى الخروج من دور الراوي ليتحدث باسم البطل أحمد متحديا:

أنا أحمد العربي – فليأت الحصار

جسدي هو الأسوار – فليأت الحصار

وهكذا يتحدث الشاعر بصوت عالٍ وبلهجة حماسية ذات وقع خطابي مباشر بعد أن ترك أحمد البطل وحده، وأحمد في نظر الشاعر كبير وبعيد عن التافهين، وإن كان يعيش في بيت من الصفيح في المخيم فإنه روح حالمة، تحلم بمستقبل أفضل.

فأحمد البطل ليس له سوى امتلاك روح سحرية تنفخ الحيلة في الناس، وتجعل الشعوب تنفجر لانفجار أحمد، إذن هي روح سحرية ستولد من غبار معركة أحمد، و ينتظرها درويش، لتثير غضب الناس:

فاذهب إلى قلبي تجد شعبي

شعوباً في انفجارك

وبعد أن وعى أحمد الفلسطيني أخذ يعمل لتحقيق حلم العودة:

صاعداً نحو التئام الجرح

تتخذ التفاصيل الرديئة شكل كمثرى

فأخذ أحمد البطل يصعد نحو حلمه، وكان متكئاً على مياه/على عرب، ظناً منه إنهم سينصرونه لكنه ينكسر:

سائراً بين التفاصيل اتكأت على مياه

فانكسرت

وبعد أن خذله الأصدقاء اعتمد على نفسه وتحمل الجراح وحده:

والتجأت إلى نزيفي كي أحدد صورتي

يا أحمد العربي [49]

لقد خذله حلمه، فكان يحلم بعواصم متآخية تضمها دولة قوية ولكن كان يحصل شيء غير متوقع:

ولكن كلما مرت خطاي على الطريق

فرت الطرق البعيدة والقريبة

كلما آخيت عاصمة رمتني بالحقيبة

فالتجأت إلى رصيف الحلم والأشعار

كم أمشي إلى حلمي فتسبقني الخناجر

آه من حلمي ومن روما !

لقد رسم أحمد خططاً وفكر في تنفيذها وراح يسلك الدروب ظاناً أنه سيصل الدولة القوية روما ولكنه كلما حاول دربا أغلق في وجهه. وبهذه المرارة يعلن أحمد عن فشل مشروع حلمه، لقد خذلته الطرق القريبة، كما خذلته الطرق البعيدة، وفي هذه اللحظة يدرك أحمد أن الجميع يريد له دور محدد، وهو أنك جميل ومقبول ما دمت منفياً، وحين تفكر بأن تكون قوياً في دولة قوية تشبه دولة روما فليس لك سوى القتل:

جميلٌ أنت في المنفى

قتيلٌ أنت في روما

ولكنه يبقى متفائلا، ويرى أن حلمه لا يتحقق إلا بالقوة. وبعدها يعود الشاعر ليرثي أحمد بنفسه وصوته:

لا تسرقوه من السنونو

لا تأخذوه من الندى

لا تسرقوه من الأبد

وتبعثروه على الصليب

وهنا يقرر الشاعر أن أحمد يستحق الرثاء، ولكن من يقدر تضحيته، لا من يتاجر بدمه، ويتمتع برؤيته وهو مصلوب، أنه يقتبس من جرحه المتوهج ناراً تنير دربه ويسقي به أزهاراً يأمل أن تتفتح، وهذه التضحية تبعث الحياة حتى في الأموات:

أوقد شمعتي من جرحي المفتوح للأزهار

والسمك المجفف(50)

وحين يعود أحمد البطل إلى الأرض، ويعيش في الواقع ويتذكر عجزه، فيخاف من عدم قدرته على حمايتها، ويبقى متمسكاً بحلمه:

وصاعداً نحو التئام الحلم

تنكمش المقاعد تحت أشجار ظلك

يختفي المتسلقون على جراحك كالذباب الموسمي

وأحمد حين يصعد إلى حلمه عاملاً من أجل تحقيقه، يتصاغر الجالسون على المقاعد، ويختفي المتسلقون الذين يشبهون الذباب، ويظل الشاعر متمسكاً بحلمه يكرر المحاولات للوصول إليه.

وهنا يعلن درويش أن أحمد سيصعد إلى حلمه رغم كل المعيقات:

وأصعد من جفاف الخبز والماء المصادر

من حصان ضاع في درب المطار

ومن هواء البحر اصعد.

إنه يصعد إلى حلمه بالخبز اليابس، وبالحصان الذي رفض الهجرة، يصعد مثل بخار الماء الذي يصل السماء ويعود حاملاً الخير إلى الأرض، فهو ينتمي إلى الفقراء الذين ينشدون معه صامدون وصامدون.

إن استشهاد أحمد المقاتل نهاية مرحلة، وبداية مرحلة جديدة، وقودها الطبقات الفقيرة التي ستفجر المرحلة المقبلة، ويخاطبه قائلا:

يا أيها الجسد المضرج بالسفوح
وبالشموس المقبلة
يا أيها الجسد الذي يتزوج الأمواج
فوق المقصلة.

ثم يقوم الشاعر برسم لوحة حزينة لاستشهاده، تؤثر فيمن حوله فيرفعون صوتهم بالتحدي مؤيدين موقفه:

يا خصر كل الريح
يا أسبوع سكر
يا اسم العيون ويا رخامي الصدى
يا أحمد المولود من حجرٍ وزعتر
ستقول:لا[51]

هنا يجعل الشاعر أحمد منفرد بصفات، فهو خصر كل الريح، فكل الأقوياء سيتبعون خطواته، فالريح هي القوة والغلبة، وهي حاملة الغيوم والمطر، و(يا أسبوع سكر) إنه أسبوع أعياد توزع فيها الحلوى لما للعدد سبعة من قدسية(سبع سموات، سبع أرضين، أيام الأعياد عند المسلمين سبعة).

فالافتداء هو مصدر الضوء المقبل، لذلك يعلن انتشار دمه في الطبيعة:

وتموت قرب دمي وتحيا في الطحين
ونزور صمتك حين تطلبنا يداك
وحين تشعلنا اليراعة.

ويعلن درويش بعد حلول روح أحمد في الطبيعة، أن الوقت حان للمواجهة فلم يعد هناك مجال للتشرد، ولا بد من مواجهة الموت بصورة جماعية، فدم أحمد أصاب الجميع(الذين سيواصلون استخدام الحصار المفروض عليهم سلاحاً يتحدون به كل الصعوبات).

وبعد أن ينادي درويش أحمد منادة الإنسان الفلسطيني العادي، الذي يعيش المشكلة شأنه شأن بقية الناس يرتفع به مرة أخرى إلى الأسطورة فيجعله شيئا غير عادي:

يا اسم البرتقالة
كيف محوت هذا الفارق الفظي بين الصخر والتفاح.

إنه شيء خارق يرى الصخر والتفاح شيئاً واحداً، ويمضي الزمن سريعا لذلك لا وقت للندب:

لا وقت للمنفى وأغنيتي
فاذهب عميقا في دمي
اذهب براعم.

يقرر درويش أن الذهاب يجب أن يكون جماعياً(سنذهب في الحصار حتى نهاية العواصم)مشيراً إلى أن دم أحمد قد أثر في ما حوله وأن جمعاً سيتقدم لإنهاء العواصم بعد أن يبرعم فيها دم أحمد[52]

اللغة الشعرية وبنية الصورة عند درويش:

أولا: اللغة الشعرية:

نلاحظ انسيابية وتألق المفردة عند درويش بحيث تجيء فيه مشحونة بالطاقات الانفعالية الحادة والمؤثرة، ومصحوبة بالبروق التعبيرية الهائلة التي تعزز وضعية الصورة في ذهنية المتلقي.

ومن أهم الملاحظات على اللغة الشعرية في قصائد محمود درويش:

_ خصوصيتها:

حيث أن صوت الشاعر يبقى متنامياً وحاضراً على امتداد القصيدة بأكملها، والأكثر من ذلك التألق الشعري لدى درويش، وإلى الدرجة التي أصبحت فيها مفردات مثل:التراب، البحر، المرحلة، تصنف ضمن القاموس الدلالي أو تسمى كلمات درويشية، وهذه المفردات تتكرر في أكثر من قصيدة، فتبدو كل مرة ذات إضافات جديدة.

وهذه مسألة توحي إلى رهافة إحساس الشاعر، وقدرته في انتقاء المفردات التي تمثل النسغ الحيوي للنص الشعري[53]:

وأريد أن أتقمص الأشجار
قد كذب المساء عليه، أشهد أنني
غطيته بالصمت قرب البحر
أشهد أنني ودعته بين الندى والانتحار[54].

انسيابيتها ودورانيتها:

الشاعر يمضي مع مفرداته دون فواصل تقف بين المفردات.بالرغم أن بعضها قد يكون نهاية لجملة، وبداية لجملة ثانية.

ومع هذا فإن التواصل وبواسطة التقنية العالية التي يصهر بها الشاعر قصيدته، يجعل المناخ التآلفي بين مفردة وأخرى هو المسيطر، ولعل السبب هو أن اللغة الشعرية الحديثة والدرويشية متحررة.

فلا داعي لاستعمال الكلمات الناشزة عن نسق بعضها لضرورات القافية، مع أن ذلك قد يسيء إلى عنصر الإيقاع والموسيقى الداخلية في القصيدة [55]:

هو الآن يمضي إليه
قنابل..... أو برتقالة
ولا يعرف الحد بين الجريمة حين تصير حقوقا
وبين العدالة
وليس يصدق شيئا
وليس يكذب شيئا[56]

اللمح والتكثيف:

المفردة تنطلق بسرعة وتنفذ في الذهنية سريعاً، فليس الشاعر بحاجة إلى العديد من الكلمات لكي يحدد برنامج اقتصادي أو برنامج سياسي، نظراً لأن القصيدة تتجمع ضمن رؤيا واحدة، وتتقاطر خلال نشيد فريد، من هنا لابد لغنى النشيد وخصوبة الرؤيا من الارتكاز على (اللمح والتكثيف)[57]

لن تفهموني
ناهضا من قبركم
والأرض للشهداء
أنهيت المغامرة الأخيرة وابتدأت:
هنا الخروج.هنا الدخول.
هنا الذهاب.هنا الإياب[58]

فعلى مستوى الإيحاءات تبدو الكلمات مشحونة بحيث أن كلاً منها يفتح نوافذ أمام المتلقي. فهنا المكان فلسطين، والحالة ضياع الشعب الفلسطيني على أيدي (شعب الله المختار).وهذا الشعب الفلسطيني يبتدئ فاتحة عصر جديد وأساطير جديدة تتجلى هذه المرة بالشهداء الذين يحددون الدخول والخروج أو الذهاب والإياب[59] .

التناسل:

القصيدة مخاض، والعملية الإبداعية ولادة، وكل ما يتعلق بها يقع ضمن هذا الإطار، في المستوى الذي نجد فيه الكلمات تتوالد من أرحام بعضها، وهذا مرده إلى سعة المخزون الثقافي للشاعر وتجربته الفذة، وصفاء المنهل، فليس الشعر في اصطفاف المفردة إلى جانب الأخرى، ولكن في رؤية الكلمات تتآخى في رحاب النشيد الخالد، وتوظيفها بالكم والنوع الذي يجعل العملية الإبداعية نابضة وليست عقيمة على مستويي الحياة والفن[60]

الموسيقى والجرس:

الكلمة التي تسحب معها طاقة تعبيرية حاشدة، هي على مستوى عال من التناغم والموسيقى، فالشاعر داخل القصيدة يأتي بالمفردات التي تكون على درجات عالية من الانسجام، بحيث تآلفها يؤلف الجرس الموسيقي. فأحيانا يسجع في القصيدة ولكن ليس بالطريقة التقليدية للسجع، فنحن معه بشخصية الشعر وشرفية التجربة الشعرية وتألقها [61]

إلى أين اذهب؟
إن الجداول باقية في عروقي
وإن السنابل تنضج تحت ثيابي
وإن المنازل مهجورة في تجاعيد كفي
وإن السلاسل تلتف حول دمي.[62]

ثانيا: الصورة الشعرية:

الواقع أن الصور الشعرية، هي من أهم مقومات القصيدة، والتي تساهم في تمتين هيكلتها، وهي تتفوق على عنصري اللغة، والإيقاع.

وهنا بعض الصور الشعرية عند محمود درويش:

1-الصورة الإنتشارية:

وهي حشد كم هائل من الصور التي تتصادم مع بعضها(لاستقصاء الحدث من كافة جوانبه) عن طريق معادلات موضوعية[63] ومثالها قوله:

كان المخيم جسد أحمد
كانت دمشق جفون أحمد
كان الحجاز ظلال أحمد
كان الحصار مرور أحمد فوق أفئدة الملايين الأسيرة
صار الحصار هجوم أحمد والبحر طلقته الأخيرة[64]

2-الصورة المركبة:

يلجأ الشاعر فيها إلى الجمع ما بين حسي ومجرد أو حسي ومرئي أو قطبين متناقضين. ويكون غرض الشاعر في هذا النوع، إعطاء المتلقي الرؤية الواضحة عن طريق إبراز المتناقضات ومنها قوله[65]:

من مطر على البحر اكتشفنا الاسم
من طعم الخريف وبرتقال القادمين من الجنوب
كأننا أسلافنا نأتي إلى بيروت
كي نأتي إلى بيروت[66]

1-الصورة الكلية:

يرسمها الشاعر في قصيدته دون أن يظهر جزئياتها تاركا للمتلقي تحليلها وتخيلها بأي شكل رأى، وبأي لون أراد[67] مثالها قوله:

لا تسرقوه من السنونو
لا تأخذوه من الندى
كتبت مراثيها العيون
وتركت قلبي للصدى
وتبعثروه على الصليب
فهو الخريطة والجسد[68]

2-الصورة الجزئية:

هي صور يرسمها الشاعر بشكل متلاحق لتؤلف مع بعضها الصورة الكلية والغرض منها، إثراء الصورة الكلية وتعميقها [69] مثالها قواه في وصف بيروت:

تفاحة للبحر ، نرجسة الرخام
فراشة فجرية . بيروت . شكل الروح في المرآة
بيروت من تعب ومن ذهب . وأندلس وشام .
فضة . زبد . وصاية . الأرض في ريش الحمام .
وفاة سنبلة . تشرد نجمة بيني وبين حبيبتي بيروت[70]

3-الصورة التجريدية:

هي النوع الذي يتركها الشاعر تقدح في ذهن المتلقي، دون أن يحدد أطرافها، والقصد منها(تحديد النشاط الذهني لدى القارئ بالدرجة الأولى)[71]

الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعد:

وبعد دراسة هذا كان لابد من الوقوف على أبرز النتائج التي توصلت إليها:

1. لقد كان غضب محمود درويش غضباً وطنياً ثورياً.
2. كانت الثورة عند درويش بؤرة وانطلاقا وموقفا ضد طوفانات ثلاثة حاصرتهم، طوفان الاحتلال وضياع الوطن، والثاني طوفان العصر الذي اختلت موازينه، والثالث طوفان الانسان الجديد الذي ضل طريقه وأغرق كل ما تبقى من قيم الحق، والعدل، والحرية.
3. محمود درويش من الشعراء الذين عاشوا الصراع بكل معانيه وهو صاحب كلمة مدافعة عن حق شعب، إذ كانت كلمته الشعرية مليئة بالأمل والتفاؤل والعطاء، فتعمقت فيه الروح الوطنية.
4. الرمز الشعري احتل مكانة مرموقة في قصيدة البطل فقد رأينا أنه يحيل إلى التاريخ ويستقي منه رموزه ويعطيها نفساً وروحاً جديدة.
5. امتلك الشاعر اللغة التي تتطور وتتألق فيها المفردة بحيث تجيء المفردة مشحونة بالطاقات الانفعالية الحادة والمؤثرة، ومصحوبة بالبروق التعبيرية الهائلة التي تعزز وضعية الصورة في ذهنية المتلقي.
6. تحسس بالجماهير وذاق مرارة الفراق والبعد، والتاع من الحرمان الذي عاناه مع شعبه وأمته.
7. إن شعر المقاومة: هو الحالة التي يعبر فيها الشاعر بعمق وأصالة عن ذاته الواعية لهويتها الثقافية والمتطلعة إلى حياتها الحقيقية في مواجهة المعتدي.

وفي الختام أتمنى أن أكون قد حققت الفائدة من هذا البحث.

الهوامش:

(1) ينظر: راضي صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين، ص580
(2) ينظر: رجاء النقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص97
(3) ينظر: راضي صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين، ص581
(4) ينظر: رجاء النقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة،ص22.
(5) ينظر: نفسه، ص23.
(6) ينظر: راضي صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين، ص582.
(7) ينظر: كمال قاسم فرهود، موسوعة إعلام الأدب العربي في العصر الحديث، المجلد الثاني، ص 1358.
(8) ينظر: راضي صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين، ص582
(9) ينظر: راضي صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين ،ص582
(10) ينظر: رجاء النقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ،ص 25
(11) ينظر: راضي صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين ،ص 583
(12) ينظر: راضي صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين، ص585
(13) نفسه ، والصفحة نفسها .
(14) ينظر: مهند عبد الحميد، سنكون يوما ما نريد، ص 263.
(15) ينظر: نفسه ،ص265.
(16) ينظر: ميشال، خليل ،أعلام الشعر العربي الحديث ،ص400.
(17) ينظر: مهند عبد الحميد، سنكون يوما ما نريد، ص(268)
(18) ينظر: جامعة القدس المفتوحة، دراسات في الأدب الفلسطيني، ص(66).
(19) ينظر: محمود درويش، الديوان، م1 / 41.
(20) ينظر: محمود درويش، الديوان ، م1/405.
(21) ينظر: عبد الرحمن الكيالي، الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ،ص88.
(22) ينظر: محمود درويش ، الديوان ، م1/82.
(23) ينظر: محمود درويش ، الديوان ، م1 / 82.
(24) ينظر: عبد الرحمن الكيالي، الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين، ص90.
(25) ينظر:محمود درويش، الديوان ، م1 /103
(26) ينظر: عبد الرحمن الكيالي، الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ،ص91.
(27) ينظر:محمود درويش، الديوان ، م1 / 85.
(28) نظر:حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص58
(29) ينظر: محمود درويش ، الديوان ،م1/58.
(30) ينظر : محمود درويش، يوميات الحزن العادي، ص40.
(31) ينظر: حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص60.
(32) ينظر : محمود درويش ، الديوان ، م1/380.
(33) ينظر: حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص62.
(34) ينظر : محمود درويش ، الديوان ، م2/ 401.
(35) ينظر: رجاء النقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة،ص22.
(36) ينظر : محمود درويش، ديوان محمود درويش، م1/71.
(37) ينظر: رجاء النقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة،ص24.

(38) تموز أودونيس في أساطير الشرق القديم هو إله الخصب والمطر، يتعرض له الخنزير البري (التنين) ويصرعه ويهبط به إلى العالم السفلي.
(39) ينظر: لطفي اليوسفي، بنية الشعر العربي المعاصر،ص 96 .
(40) ينظر: محمود درويش ، الديوان ، م1/405.
(41) ينظر: «محمود درويش»، صحيفة الجماهير، ص20 .
(42) محمود درويش : الديوان، م1 ص 405
(43) ينظر: «محمود درويش»، صحيفة الجماهير، ص21 .
(44) محمود درويش : الديوان، م1 ص 405.
(45) ينظر : د. ناصر علي، بنية القصيدة في شعر محمود درويش،ص 154 .
(46) ينظر : محمود درويش ، الديوان ، م 1/ 609.
(47) ينظر : محمود درويش ، الديوان ، م 2 /126
(48) ينظر : د. ناصر علي، بنية القصيدة في شعر محمود درويش،ص154.
(49) ينظر : محمد إبراهيم الحاج صالح، أحمد الزعتر، ص 155 .
(50) ينظر : محمد إبراهيم الحاج صالح، أحمد الزعتر، ص 132 .
(51) ينظر : محمد إبراهيم الحاج صالح، أحمد الزعتر، ص 132 .
(52) ينظر : محمد إبراهيم الحاج صالح، أحمد الزعتر، ص143 .
(53) ينظر : محمد إبراهيم الحاج صالح، أحمد الزعتر، ص162 .
(54) ينظر : حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص 83 .
(55) ينظر : محمود درويش، تلك صورتها وهذا انتحار العاشق، ص84 .
(56) ينظر : حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص84
(57) ينظر : محمود درويش ، الديوان ، ص99
(58) ينظر : حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص 85
(59) ينظر : محمود درويش ، الديوان ، ص222
(60) ينظر : حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص86
(61) ينظر : حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة 86.
(62) ينظر : نفسه ،ص87
(63) ينظر : محمود درويش ، الديوان ، ص88
(64) ينظر : محمد شاكر النابلسي، مجنون التراب، ص 629.
(65) ينظر : محمود درويش ، الديوان ،م 1 /621
(66) ينظر : صالح أبو إصبع ، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة ،ص60.
(67) ينظر : محمود درويش ، الديوان ،م 1 /629
(68) ينظر : صالح أبو إصبع ، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة ،ص62.
(69) ينظر: محمد شاكر النابلسي ، مجنون التراب،ص633.
(70) ينظر: محمود درويش ، الديوان ،م1/482.
(71) ينظر: محمد شاكر النابلسي ، مجنون التراب،ص634.

المصادر والمراجع:

(1) أبو إصبع ،صالح، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة،ط1،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،1979.

(2) بيضون، حيدر توفيق ، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1991 .

(3) الحاج صالح، محمد إبراهيم ، أحمد الزعتر،ط1، د.ط، 1995.

(4) خليل، ميشال ،أعلام الشعر العربي الحديث ، ط2 ، دار العودة ، بيروت ، 2003

(5) درويش، محمود ،ديوان محمود درويش ،م1 ، ط2، دار العودة، بيروت، 1987 .

(6) درويش، محمود ،ديوان محمود درويش، م2 ، ط5 ، بيروت ،1996.

(7) درويش ، محمود ، تلك صورتها وهذا انتحار العاشق، دار العودة، بيروت،1975.

(8) درويش، محمود، يوميات الحزن العادي، ط1، دار العودة بيروت،1984 .

(9) صدوق ،راضي، شعراء فلسطين في القرن العشرين ،دار العودة ،بيروت ،1973 .

(10) عبد الحميد، مهند ، سنكون يوما ما نريد، ط1، د.ط ، 2008 .

(11) علي، ناصر، بنية القصيدة في شعر محمود درويش، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،عمان،2001 .

(12) فرهود، كمال قاسم ، موسوعة أعلام الأدب العربي في العصر الحديث، المجلد الثاني، ط3 ،د.ط، د.ت .

(13) الكيالي، عبد الرحمن ، الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1982.

(14) مقرر(دراسات في الأدب الفلسطيني) ، رقم 5346، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين .

(15) النابلسي، محمد شاكر، مجنون التراب، د.ط ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987م.

(16) النقاش، رجاء ،محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط3 ، بيروت،1972 .

(17) اليوسفي، محمد لطفي، بنية الشعر العربي المعاصر، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، 1985 .